112020 - بري أمك ، ولا تعقي أباك ؟!

السؤال

أرجو حقّاً أن تقدم لي المشورة والرأي السديد في أمرٍ سأعرضه عليك ، ولا يخفى ما لرأيك ومشورتك من جميل الأثر ، وعظيم النفع بإذن الله . أنا يا شيخ من جدة ، طالبة بالتربية العلمية ، قسم الفيزياء ، عمري 20 سنة ، وأرجو أن تكون هذه السنوات في طاعة الله ، في العادة – يا شيخ – إذا استعصى عليَّ أمر ولم أجد حلاًّ له بنفسي ، أستشير والدي وهو أكثر من صديق مقرب إلى قلبي حفظه الله وحفظك ، لكن في هذا الأمر بالذات لم يكن هذا وارداً ، ولا جزءً من خياراتي . المشكلة باختصار في رضى والدي الاثنين ، أستطيع أن أقول إن رضى أبي هو هدفي في الحياة ، بعد عبادة الله ، لكن ماذا أفعل – يا شيخ – إذا كان أكثر ما يجعله عني راضياً هو مقاطعة والدتي تماماً ؟ ! ، وماذا أفعل إذا كانت والدتي تحلم باليوم الذي نقاطع فيه أبانا ؟! . إلى الآن اخترت أنا والدي ، والتزمت الصمت ، أخوتي حاولوا الجمع بين برِّهما ، ووصلهما ، لكن لا أبي راضٍ ، ولا أمي راضية . الموضوع – يا شيخ – أن والديَّ انفصلا منذ كنت في الرابعة من عمري ، ومن يومها ما رأيت أمي قط ، ولا حدثتها ، وفي بداية هذه السنة حدث تواصل بينها وبين أخوتي ، وبدأت دخول حياتهم شيئاً فشيئاً ، عندما اكتشف والدي الأمر أحس بصدمة ، وشعر بخيانة ، طيلة هذه السنين لم يتزوج ، ولم يخرج يوماً مع رفاق ، أو أصدقاء ، ربَّانا أنا وأخوتي الثلاثة وحده ، لا عمتي وقفت بجانبه ولا خالة ، والله كانت تمر علينا السنة والسنتان والثلاث وما يسأل عنا من أهلنا أحد . والآن : أقولها بالعامية (يا كثر المشاكل اللي صارت بين إخواني وأبوي) أحس فعلا ما عاد يطيق وجودهم ، وإلى الآن أمي لم تحاول رؤيتي في الجامعة ، أو لم تحاول حتى محادثتي على جوالي ، أستغرب هذا الشيء ، لكن ربما سهلت عليَّ الاختيار ، حاجتي لأمي لا تخفى على أي عاقل ، هذا شي مفروغ منه ، لكنِّي حقّاً كبرت ، وتمَّت تربيتي بأحسن أسلوب ، وما أشعر أني بحاجة لوجودها ، فلماذا أجعلها تؤثر على علاقتي بوالدي ؟ أعطني رأيك ياشيخ .

الإجابة المفصلة

أولاً:

بر الوالدين من الواجبات المحتمات على الأولاد ، وعقوقهما من المحرَّمات القطعيات ، والمؤمن يبحث عن رضا ربه تعالى بأداء ما أوجب الله تعالى عليه ، وبالانتهاء عما نهاه عنه ، فهو يرجو ثواب ربه ، ويخاف عقابه .

ومن علامات بر الوالدين : طاعتهما ، والإحسان إليهما بالقول والفعل ، وعدم الإساء إليهما ، ولو بقول " أف " ، ولكن هذا لا يعني أنهما يطاعان بكل ما يأمران به ، بل إن ذلك مقيَّد بكون أمرهما موافقاً للشرع ، ولا يشتمل على محرَّم يغضب الله تعالى ، فهنا لا طاعة لهما ، ولو أدَّى ذلك لتنغصهما ، فالمؤمن عبدٌ لربه تعالى يأتمر بأمره ، وينتهي عن نهيه ، وكل مطاعٍ فطاعته مقيدة بشرع الله تعالى غير مستقلة عنه .

قال الله تبارك وتعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) الإسراء/ 23 – 25 .

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله :

" حكم ربك يا محمد بأمره إياكم ألا تعبدوا إلا الله ، فإنه لا ينبغي أن يُعبد غيره ، وأمركم بالوالدين إحساناً ، أن تحسنوا إليهما ، وتبرّوهما " انتهى .

"تفسير الطبري" (17/413 ، 414) .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله :

" أمر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بإخلاص العبادة له وحده ، وقرن بذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وجعْلُه برَّ الوالدين مقروناً بعبادته وحده جل وعلا المذكور هنا : ذَكَرَه في آيات أخر ، كقوله في سورة " النساء " : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) ، وقوله في البقرة (وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) ، وقوله في سورة لقمان : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) ، وبيَّن في موضوع آخر أن برَّهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما ، كقوله في " لقمان " : (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً) ، وقوله في " العنكبوت " : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُم) الآية .

وذِكْرُه جل وعلا في هذه الآيات برَّ الوالدين مقروناً بتوحيده جل وعلا في عبادته : يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين " انتهى .

"أضواء البيان" (3 / 85) .

ولذا فإن الواجب عليك بر والديْكِ ، ويحرم عليك عقوقهما ، وأمر والدك بمقاطعة والدتك : مخالف للشرع ، يحرم عليك الاستجابة له ، ومثله لو أمرتك والدتك بمقاطعة والدك .

وإذا كان للأب حق واحد : فللأم ثلاثة أضعاف ذلك الحق .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ : (أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ) رواه البخاري (5626) ومسلم (2548) .

قال النووي رحمه الله :

" وفيه الحث على بر الأقارب ، وأن الأم أحقهم بذلك ، ثم بعدها الأب ثم الأقرب ، فالأقرب ، قال العلماء : وسبب تقديم الأم : كثرة تعبها عليه ، وشفقتها ، وخدمتها ، ومعاناة المشاق في حمله ، ثم وضعه ، ثم إرضاعه ، ثم تربيته ، وخدمته وتمريضه ، وغير ذلك " انتهى .

"شرح مسلم" (16/102) .

ثانياً:

بإمكانك – أختي الفاضلة – بر أمك دون أن تذكري ذلك لوالدك ، ودون الحاجة لأن يعرف أنك تفعلينه ، وهو لا يحل له ابتداءً أن يأمرك بالابتعاد عنها ، وعدم الحديث معها ، ويستطيع الأولاد بحكمة أن يجمعوا بين البرَّيْن والصلتين دون الحاجة لتفضيل جانب على آخر ، ودون الحاجة لإلغاء طرف على حسب طرف آخر .

سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله :

أنا شاب أبلغ من العمر 18 عاماً ، أؤدي الصلاة ، وأعمل لنيل رضا والدي وطاعته ، ولكن منذ ولادتي وحتى الآن لم أر والدتي ، ولكني أعلم أين تقيم الآن ، وهي بعيدة عني ، والحقيقة بيَّنها لي والدي ، حيث أنه طلقها ، وأنا أريد رؤيتها ؛ لأنها أمي ، وسيحاسبني الله عليها إن لم أزرها ، مع العلم بأني لم أذكر لأبي بأنني أريد أن أراها ، أخاف أن أبيِّن له هذا ويغضب عليَّ ، خاصة وأنه متزوج من امرأة ثانية ، ولديه منها عدة أطفال ، فما حكم الشرع في حالتي هذه ؟

فأجاب :

" الذي نرى : أنه يجب عليك أن تزور أمك ، وأن تصحبها بالمعروف ، وأن تبرها بما يجب عليك برها به ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سئل مَن أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قيل ثم مَن ؟ قال : أمك ، قيل ثم من ؟ قال : أمك ، قيل ثم من ؟ قال : أبوك .

فلا يحل لك أن تقاطع أمك هذه المقاطعة ، بل صلها ، وزرها ، ولك في هذه الحال أن تداري والدك ، بحيث لا يعلم بزيارتك لأمك ، ومواصلتك إياها ، وبرك بها ، فتكون بذلك قائماً بحق الأم ، متلافياً غضب والدك " انتهى .

"فتاوى إسلامية" (4/213) .

وسئل الشيخ العثيمين رحمه الله – أيضاً – :

شاب يبلغ الخامسة والعشرين من العمر ، والدي ووالدتي في خصام مستمر طول أيامهما ، إن بررت بالأول : غضب ، ونفر الثاني ، إن بررت الثاني : غضب الأول ، واتهمني بالعقوق ، ماذا أفعل يا فضيلة الشيخ لكي أبرهما ؟ وهل أعتبر عاقّاً بالنسبة لأمي بمجرد أنني بررت بأبي أو العكس ؟

فأجاب :

" الإجابة على هذا أن نقول : إن بر الوالدين من أوجب الواجبات التي تجب للبشر على البشر ؛ لقول الله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) ، وقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ، وقوله تعالى (أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ) ، والأحاديث في هذا كثيرة جدّاً ، والواجب على المرء أن يبر والديه كليهما : الأم والأب ، يبرهما بالمال ، والبدن ، والجاه ، وبكل ما يستطيع من البر حتى أن الله تعالى قال : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) ، فأمر بمصاحبة هذين الوالدين المشركين اللذين يبذلان الجهد .. في أمر ولدهما بالشرك ومع ذلك أمر الله أن يصاحبهما في الدنيا معروفاً ، وإذا كان ذلك كذلك : فالواجب عليك نحو والديك اللذين ذكرت أنهما في خصام دائم ، وأن كل واحد منهما يغضب عليك إذا بررت الآخر ، الواجب عليك أمران :

الأول : بالنسبة للخصام الواقع بينهما : أن تحاول الإصلاح بينهما ما استطعت ، حتى يزول ما بينهما من الخصام والعداوة والبغضاء ؛ لأن كل واحد من الزوجين يجب عليه للآخر حقوق لابد أن يقوم بها ، ومن بر والديك أن تحاول إزالة هذه الخصومات حتى يبقى الجو صافياً ، وتكون الحياة سعيدة .

وأما الأمر الثاني : فالواجب عليك نحوهما أن تقوم ببر كل واحد منهما ، وبإمكانك أن تتلافى غضب الآخر إذا بررت صاحبه بإخفاء البر عنه ، وتبر أمك بأمر لا يطلع عليه والدك ، وتبر والدك بأمر لا تطلع عليه أمك ، وبهذا يحصل المطلوب ، ولا ينبغي أن ترضى ببقاء والديك على هذا النزاع ، وهذه الخصومة ، ولا على هذا الغضب إذا برتَ الآخر ، والواجب عليك أن تبين لكل واحد منهما أن بر صاحبه لا يعنى قطيعته ، أي : قطيعة الآخر بل كل واحد منهما له من البر ما أمر الله به " انتهى .

"فتاوى إسلامية" (4/196 ، 197) .

وانظري أجوبة الأسئلة : (5053) ، (3044) ، (5326) .

على أننا ننبهك ـ أيتها السائلة الكريمة ـ إلى أن تتدرجي في تنفيذ ما نصحناك به ، وأن تراعي مشاعر والدك ورضاه قدر الإمكان ؛ لأن أمك غائبة عنك بطبيعة الحال ، ولن تتأثر بأمرك تأثر والدك به ، والتي غابت عنك ، أو غبت عنها نحوا من ستة عشر عاما ، لن تتأثر كثيرا ، بغياب يوم أو يومين ، وشهر أو شهرين ، ريثما تمهدي لما أنت مقدمة عليه ، وتتمكني من بر إمك وإرضائها ، من غير أن تغضبي أباك أو تسيئي إليه ، وتذكري أن أباك ـ وفقه الله وهداه ، لما يحبه ويرضاه ـ قد قام نحوكم بالدورين : دور الأب ، ودور الأم ؛ فحقه مضاعف ، ورضاه مؤكد ، والواجبات الشرعية جميعا إنما تجب على الإنسان بقدر استطاعته ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، فاستعيني بالله أن يفتح لك أبواب الطاعة والبر ، وأن يشرح صدر أباكِ .

والله أعلم